الصعود نحو الهجرة

دلالات ومعاني الهجرة النبوية

وصفي عاشور أبو زيد

لقد تمتع الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- بثقافة موسوعية أنتجت لنا العديد من الكتب في شتى نواحي الفكر والمعرفة؛ فنجد له تراثا في العقيدة والتفسير، والأخلاق والتصوف، والفكر والفلسفة، والأدب والدعوة، والإصلاح والتغيير، وغيرها. ومن أبرز المجالات التي أبدع فيها الشيخ الغزالي مجال السيرة النبوية التي له فيها صولات وجولات مع الأحداث، وتعليقات على كثير من المواقف والغزوات، يشعر القارئ معها بفكر جديد وفهم فريد لأحداث ووقائع السيرة العطرة.

ومن القضايا المهمة التي تحدث عنها الشيخ في السيرة في غير موضع من كتبه قضية الهجرة النبوية التي تمر علينا ذكراها في هذه الأيام، وقد تمركزت أفكار الشيخ حولها فيما يلي:

أولا: الهجرة حدث أكبر من أن تعلق عليه سورة واحدة

وهذه واحدة من مناقب الشيخ في فهمه للهجرة النبوية؛ ذلك أننا ألفنا أن يتنزل القرآن تعليقًا على ما يكون من أحداث؛ فيوجه المسلمين التوجيه الذي يفتقرون إليه؛ فإن كان نصرًا بيّن أسبابه وكسر الغرور الذي قد يصاحب المنتصرين، وإن كانت هزيمة بيّن أسبابها ومسح التراب الذي عفّر جباه المنهزمين.

لقد نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر، ونزلت سورة الأحزاب في أعقاب الخندق، ونزل النصف الأخير من سورة آل عمران في أعقاب أحد.. فهل نزلت في أعقاب الهجرة سورة لا سيما بعد نجاح رحلتها كما حدث في أعقاب الغزوات؟

ويجيب الشيخ على هذا التساؤل قائلا: "لم يقع هذا، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم، كان الله -سبحانه وتعالى- حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن تعلق عليها سورة واحدة، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهي الأمر؛ فحكم -جل شأنه- بأن تكون ذكرى الهجرة قصة تؤخذ العبرة منها على امتداد الأيام، وتذكر في أمور كثيرة وفي مناسبات مختلفة(١).

ومن ناحية أخرى يرى الشيخ أنها لم تذكر في سورة واحدة مثل المعارك؛ لأن هذه المعارك استغرقت أياما قليلة، أما الهجرة فشأن آخر.. لقد ظلت أفواج المهاجرين متصلة سنين عددا، وتطلب التعليق عليها مواضع عديدة(٢).

ومن ثم ذكرت الهجرة في سور: البقرة(٣) وآل عمران(٤) والنساء(٥) والأنفال(٦) والتوبة(٧) والنحل(٨) والحج(٩) والممتحنة(١٠) والتغابن(١١) والحشر(١٢)... وكان التعليق في كل سورة إبرازًا لمعنى مقصود(١٣).

ثانيا: وزن الإيمان في الهجرة

والإيمان في فكر الشيخ له وزن لا يستهان به عموما، وفي الهجرة خصوصا؛ فليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، إنها إكراه رجل آمن في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه وتضحيته بأمواله والنجاة بشخصه، وإشعاره بأنه مستباح منهوب قد يسلب أو يهلك في بداية الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة شخص بنفسه لقيل: مغامر طياش؛ فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها حاملاً أهله وولده؟! وكيف وهو بذلك رضيُ الضمير وضاء الوجه(١٤).

ما السر وراء تحمله ذلك كله؟ وليس الأمر تحملا وحسب، إنما تحمل يصاحبه فرحة وسرور، وصبر يحوطه رضًى وحبور، إنه الإيمان الذي يزن هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن تربى على تعاليم النبوة، وقبس من أنوار الوحي، وتضلع من هدي الإسلام.

■.. الغزالي

أما الهياب الخوّار القلق فما يستطيع أن يفارق أهله ووطنه، فضلا عن أن يكون بذلك مطمئن النفس رضيّ الضمير.

ثالثًا: إيمان بالمستقبل وثقة بالغيب

هكذا يعبر الشيخ "إيمان بالمستقبل وثقة بالغيب"، وكان المنتظر أن يقول "إيمان بالغيب وثقة بالمستقبل"، لكنه عبر مع المستقبل بالإيمان ليرفع الثقة بالمستقبل إلى درجة العقيدة والإيمان بالغيب.

في إطار هذا الإيمان العميق لبى المسلمون نداء الهجرة عندما طولبوا بها، واستجابوا لنداء الله ورسوله غير خائفين ولا جازعين(١٥).

رابعا: فكرة لا رحلة

فالهجرة في فكر الشيخ ليست رحلة ولا عملاً ترفيهيًا، ولم تكرم الهجرة لكونها سفرًا فحسب؛ فما أكثر المسافرين قديما وحديثا بين مكة والمدينة.

إن الشيء الواحد قد يكون عملاً مضنيًا أو لعبًا مريحا مسليًا، فالمظهر والشكل لا يتغير، لكن الذي يتغير هو البواعث والجوهر والملابسات.

وهكذا كانت الهجرة.. خطواتٌ يتحرك بها القلب المؤمن في الحياة؛ فتتحرك في ركابها الثقة الغالية والتضحية النبيلة، إنها طريق الأبطال تزدحم بالفدائيين من حملة العقائد، يتركون البلد الذي اضطُهد دينهم فيه ليلتمسوا في مهجرهم مأمنًا لعقيدتهم ومتنفسًا لدينهم، ويقيموا فيه مجتمعا يحتضن الشعائر والشرائع.

وفي الهجرة نفسها خرج رجل إلى المدينة من أجل عشيقة يهواها، وشتان بين المهاجرين لعقيدتهم ودينهم وبين من يخطو خطوات الشهوة الصغيرة، تتحرك بصاحبها؛ فلا تفرق بينها وبين خطوات الدابة التي حملته، ورب قاعد في بلده أشرف نفسًا من هذا المهاجر التافه(١٦).

خامسًا: ليست تخلُّصًا من فتنة بل لإقامة مجتمع آمن

والهجرة في فكر الشيخ الغزالي ليست تخلصًا من فتنة أو فرارًا من أذى، وإلا لم يكن هنالك مبرر للمكث ثلاثة عشر عامًا في هذا الجو الملبد بسحب الكفر والاضطهاد، إن الذي يبرر هذه المدة هو تمهيد المؤمنين بقيادة النبي -صلى الله عليه وسلم- لإقامة مجتمع جديد في بلد آمن ذهب إليه مصعب بن عمير ليستتبع الناس ويستقطبهم للإسلام؛ ذلك أن إقامة الدين في مجتمع مكة أضحى دونه خرط القتاد؛ لما اتصف به من عناد وجبروت، فلم يكُ يصلح لهذا الفكر، والدعوة ما زالت وليدة غضة طرية، والمسلمون قلة مستضعفة، فلم يكن هنالك بد من التهيئة للدين في مكان آمن، عندئذ يقوى المسلمون وتشب الدعوة.

ويعلق الشيخ قائلا: "ولا شك أن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة، وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة -بعد الهجرة إليها- نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله؛ فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها"(١٧).

سادسًا: الهجرة تطبيق لقانون السببية

الأخذ بالأسباب في فكر الشيخ الغزالي دين، وهو معنى يكرره الشيخ كثيرا كلما عرض للحديث عن الهجرة أو للكلام عن تخلف المسلمين وتقدم غيرهم(١٨)، لم يقل النبي -صلى الله عليه وسلم-: إننا أوذينا وأخرجنا من ديارنا؛ فعناية الله ينبغي أن تلاحقنا، وحماية الله يجب أن تحوطنا، ولا حرج في بعض التقصير فإن الله سيجبر الكسر ويسد النقص... إلى آخر هذا الكلام، لم يقل النبي هذا، إنما استنفد كل وسيلة بشرية يمكن أن تؤخذ، فلم يترك ثغرة، ولا أبقى في خطته مكانًا يكمله الذكاء والفطنة.

ومع أن محمد بن عبد الله -عليه السلام- أولى الناس بتوفيق الله ورعايته، وأجدر الخلق بنصره وعنايته؛ فإن ذلك لا يغني عن إتقان التخطيط وإحكام الوسائل وسد الثغرات شيئًا مذكورا.

ومن هنا جعل -صلى الله عليه وسلم- يفكر في الاختباء في الغار وفي تضليل أعدائه؛ فكان يتجه جنوبًا وهو يريد أن يتجه إلى الشمال، وأخذ راحلتين قويتين مستريحتين حتى تقويا على وعثاء السفر وطول الطريق. وهذا دليل مدرب ليعرف ما هنالك من وجوه الطرق والأماكن التي يمكن السير فيها بعيدا عن أعين الأعداء، وهذا علي بن أبي طالب ينام مكانه ليضلل الكافرين، وذلك يسير بالأغنام وراءهما يمحو آثار المسير، ولكي يكون على دراية تامة باتجاهات العدو ونواياه تأتيه الأخبار عن طريق راعي أبي بكر، كما أتت بعض الأغذية عن طريق بنت أبي بكر.. هل بقي من الأسباب شيء لم يؤخذ، أو من الوسائل لم يستنفد، أو من الثغرات لم يُسد؟ كلا كلا..

إن منطق الإسلام هو احترام قانون السببية؛ لأن الله تعالى لا ينصر المفرطين ولو كانوا مؤمنين، بل ينتقم من المقصرين المفرطين كما ينتقم من الظالمين المعتدين، "وإذا تكاسلت عن أداء ما عليك وأنت قادر، فكيف ترجو من الله أن يساعدك وأنت لم تساعد نفسك"(١٩). كيف ينتظر المرء من الله أن يقدم له كل شيء وهو لم يقدم له شيئًا؟!

وليس معنى الأخذ بالأسباب الاعتماد عليها، بل الطريقة المثلى في التصور الإسلامي أن يقوم المسلم بالأسباب كأنها كل شيء في النجاح، ثم يتوكل على الله كأنه لم يقدم لنفسه سببًا، ولا أحكم خطة، ولا سد ثغرة.

■.. مدخل غار حراء كما يبدو الآن « الصورة العليا »

■.. بطن الجبل الذي يقع فيه غار حراء.

محطة لتجديد الأمل

عبد الحميد الكبتي

في كل عام وبعد موسم الحج المبارك، موسم المغفرة والرحمات، يبدأ العام الهجري الجديد، ويتجدد معه تذكر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك الهجرة التي أنجبت دولة حضارية في زمن قياسي في تاريخ الأمم، وسادت قوانين السماء الربانية أرجاء المعمورة، وأينع البناء الحضاري في كل روضة وربوة من فيحاء هذه الدنيا.

ومع إشراقة كل عام جديد يقف المسلم بين يدي هذا الحدث، متأملاً معتبرًا محللاً، علّه يرتقي بنفسه وبمن حوله إلى مستوى الحدث الضخم في تاريخ البشرية، يستمطر الرحمات لواقع مؤلم ونفس جموح، وتشتت في الجهود والإمكانات.

وللهجرة معنيان: حسي ومعنوي، وفي معناها اللغوي هي الانتقال، وقد يكون الانتقال حسيًا بترك مكان لآخر، وقد يكون معنويًا بالانتقال من ثقافة إلى أخرى.

ومن معاني هذا الأخير قول الله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} (المدثر: ٥)، وقوله عز وجل: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً} (المزمل: ١٠)؛ فهي مراجعة لكافة الموروثات الثقافية والبنائية، واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الفساد في الفهم والتطبيق، مراجعة عملية فاعلة.

والهجرة إن هي إلا رديف لمعنى التزكية، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها" [أبو داود بسند صحيح .[

إن الحديث عن الهجرة يجب ألا تقف فيه عند مظاهر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ونسرد التفاصيل التي وردت عنها، بل نحن مطالبون بالغوص في عميق جذرها، وتحليل نفسية الهجرة وفلسفتها؛ كي نعي وندرك منها بعضًا من سبل الخلاص لأنفسنا وأمتنا الكريمة.

إن التلازم بين معنيي الهجرة -الجسدي والنفسي- لا يزال قائما ما دام المؤمنون لم يمسكوا بزمام الأستاذية العالمية، ولا يزالون حتى ذلك الوقت يحتاجون إلى المعين المزدوج للهجرة النبوية العطرة، ولا يتوقف أبدا المعنى النفسي أو المعنوي؛ لأنه بمثابة الزاد والتزكية للأنفس والمجتمعات.

فالهجرة النبوية نهر جاري العطاء في كل حين بإذن ربه، يغرف منه المؤمن رواء له حينا بعد حين، يربط الحداثة بالواقع، ويتلقط منها ما يريد.

أهمية الهجرة

تكمن أهمية الهجرة في:

-تخليص المؤمنين من حالة العوز وقلة الأمن، ومن ثم إطلاق قدراتهم الإنتاجية في حالتي السلم والحرب معا، قال تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} (النساء: ١٠٠)، والمراغم هو المنعة والقوة، أو ما يرغم به المؤمنون أعداءهم على مساومتهم ومنعهم من العدوان عليهم، والسعة هي سعة العيش، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (النحل: ٤١.(

فالمهاجر في سبيل الله اليوم إنما يهاجر ليطلق لنفسه قدراتها، ويتحلل من كل قيد يلزمه بالقعود، والمهاجر في سبيل الله اليوم مطالب بأن يطلق لفكره وعقله وعلمه كل الآفاق الرحبة الواسعة.

والأمة تقف أمام أمر إطلاق الطاقات هذا وتتمعن في نفسها، وما يكبلها من أسار الأغلال الثقيلة التي جعلتها في آخر الأمم، وتمعن الأمة النظر في الأمن والحريات التي هي أول مدارج الصعود نحو الهجرة؛ لتعي الهوة الكبيرة بينها وبين الهجرة النبوية العطرة. كذا المسلم -بله الداعية- يقف ليراجع فكره ونفسه، ويستخرج الأغلال التي تحيط به أن ينطلق الانطلاقة المباركة وفق شرع ربنا الحكيم، وقدوته صاحب الهجرة عليه الصلاة والسلام.

إن الأعداد الكبيرة من المسلمين التي تهاجر اليوم الهجرة العكسية إلى بلاد الغرب، ثم تظل تدور حول نفسها متأثرة بالمحيط الذي تعيش فيه، غاب عنها معنى إطلاق الطاقات هذا، وفات عليها لباب الأمر في فقه الهجرة.

-والهجرة بمعناها الشامل حركة تجديد مستمر، وعامل جماعية أو المؤسسية.

إذ جوهر الهجرة يقوم على هَجْر كل ما لا يليق، وبهذه النظرة الواعية لمعنى الهجرة يكون النقد البناء، وتكون المراجعات الربانية للسِّير، والتفرس في الأخطاء، وهذا من أقوى عوامل النهوض الحضاري.

إن حالة الأمة اليوم -وحال أفرادها في الغالب- لفي أشد الحاجة إلى إطلاق الطاقات الكبيرة التي تحوزها في أبنائها، وتوفير الأمن والاستقرار لها؛ فما سعى النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة إلا بعد سنوات من الكبت والتضييق؛ فكانت المدينة المنورة البيئة التي انطلق فيها البناء الحضاري، ونلمس اليوم إما كيانًا لمجتمعات كاملة، أو فقدانًا للدور في كثرة من أفراد الأمة.

وحركة التجديد التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود بسند صحيح) هذه الحركة تحتاج إلى تجديد في الأفراد والمؤسسات.

والنقد الداخلي والتوبة والمراجعة قوة تتماسك بها الأمة، وتسترد بها عافيتها، ويتنفس بها كل فرد أنسام البناء الحضاري.

وما أصدق قول الشاعر وليد الأعظمي حين قال:

يا هجرة المصطفى والعين باكية ... والدمع يجري غزيرًا من ماقيها

يا هجرة المصطفى هيّجت ساكنةً ... من الجوارح كاد اليأس يطويها

هيجت أشجاننا والله فانطلقت ... منا حناجرنا بالحزن تأويها

إنها دموع المسلم تنهمر من ماقيه على واقع أمته، وتعطل منابع الخيرات فيها، لكن الأمل يتجدد دائمًا بهجرة الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام مصدر الاقتداء في المحن والمنح.

ومع إدراك فقه الهجرة وأبعادها يُطوَى اليأس، وتُطوَى معه مراحل كئيبة في النفس، وما ثمة مكان للحزن: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {التوبة ٤٠.[

رحلة مع التأريخ الهجري

■ لم يعتمد العرب قبل الإسلام تقويمًا خاصًا بهم على الأرجح رغم اعتمادهم السنة القمرية وتقسيمها إلى اثني عشر شهرا، وتسميتها بأسماء مختلفة كما بالجدول أدناه:

وإنما اعتمدوا في تاريخهم لأحداث حياتهم على حوادث تاريخية مشهورة، مثل: عام الفيل وحرب الفجار وإعادة بناء الكعبة... وربما يرجع السبب في ذلك إلى الطبيعة العربية القديمة حيث الترحال وعدم الاستقرار وكثرة الحروب والمنازعات بين القبائل المختلفة، وعدم اجتماعهم على حادثة بعينها تكون بداية تاريخ لهم.

ومع ذلك فقد اتفقت القبائل العربية على احترام أشهر بعينها، أطلقوا عليها الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، حرموا فيها الاقتتال والغارات، ورغم ذلك لم تسلم من التحايل عليها، حيث لجئوا قبل الإسلام إلى نظام النسيء الذي يعطيهم الحق في تأخير أو تسبيق هذه الأشهر الحرم، واستمرت هذه العادة حتى جاء الإسلام وحرمها بقوله تعالى: "إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله..." (التوبة: ٣٧).

وبعد مجيء الإسلام استمر العرب والمسلمون فترة من الزمن على ما كانوا عليه من قبل، يؤرخون بالأحداث الهامة، واستمر ذلك حتى بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، حيث لم تُعط السنوات تواريخ رقمية تدل عليها، وإنما أعطيت أسماء تدل على أشهر الحوادث التي وقعت بها، فالسنوات العشر التالية للهجرة وحتى وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخذت الأسماء التالية:

١ - السنة الأولى: عرفت بـ"الإذن". ● ٢ - السنة الثانية: عرفت بـ"الأمر".
٣ - السنة الثالثة: عرفت بـ"التمحيص". ● ٤ - السنة الرابعة: عرفت بـ"الترفئة".
٥ - السنة الخامسة: عرفت بـ"الزلزال". ● ٦ - السنة السادسة: عرفت بـ"الاستئناس".
٧ - السنة السابعة: عرفت بـ"الاستغلاب". ● ٨ - السنة الثامنة: عرفت بـ"الاستواء".
٩ - السنة التاسعة: عرفت بـ"البراءة". ● ١٠- السنة العاشرة: عرفت بـ"الوداع".

واستمر الوضع على هذه الصورة حتى تاريخ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي ارتأى حاجة الدول الإسلامية المتسعة الأطراف إلى تقويم خاص بها، وبعد مشاورات ومداولات مع وجوه الصحابة اتفقت الكلمة على أن يتخذ من هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة مبدأ للتقويم؛ وذلك لأن الهجرة فرقت بين الحق والباطل، وكانت بداية حقيقية للدولة الإسلامية، وقد اتفق على أن يتخذ أول شهر محرم من السنة التي هاجر فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبدأ للتاريخ الإسلامي؛ لأنه من الأشهر الحرم، وأول الشهور في العد، ومنصرف الناس في الحج. علما بأن الهجرة لم تكن في هذا اليوم، وإنما سبقته بنحو ٦٧ يوما؛ حيث بدأت في أواخر أيام شهر صفر، ووصل النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة في ١٢ من ربيع الأول.ذكر هذا الإمام أحمد بن حنبل وكتب الحديث فقد روي أن رسول الله ولد في شهر ربيع الأول وهاجر في شهر ربيع الأول وتوفي في شهر ربيع الأول،

الأشهر الإسلامية	الاسم القديم - برواية المسعودي	شهور العرب الشمسية	الأشهر السبئية الحميرية
محرم	ناتق	ربعي	ذوأبهي
صفر	ثقيل	دفني	ذودثم
ربيع الأول	طليق	ناتق	ذودثأ
ربيع الآخر	ناجر	ناجر	ذوحجتان
مادي الأولى	سماح	آجر	ذوحضر
جمادي الآخرة	أمنح	بخباخ	ذوخرف
رجب	أحلك	خرفي	ذومخظوم
شعبان	كسع	وسمي	نجوة
رمضان	زاهر	برك	ذوفلسم
شوال	برط	شيبان	ذوفرع
ذو القعدة	حفر	ملحقان	ذوسلام
ذو الحجة	نعس	رنة	ذوثور

المعجزات الحسّية والهجرة

الناس في هذه القضية -قضية المعجزات المحمدية المادية- أصناف ثلاثة:

الصنف الأول:

صنف يبالغ في الإثبات، وسنده في ذلك ما حوته الكتب، أيًا كانت هذه الكتب: سواء كانت للمتقدمين أو المتأخرين، وسواء كانت تُعنى بتمحيص الروايات أم لا تُعنى، وسواء وافق ذلك الأصول أم خالفها، وسواء قبله المحققون من العلماء أم رفضوه.

وهذا هو موقف جمهرة الكتاب والمؤلفين في عصرنا، حين ينقلون من تاريخ الطبري، أو طبقات ابن سعد أو غيرها.

الصنف الثاني:

صنف يبالغ في النفي والإنكار للمعجزات والآيات الحسية الكونية، وعمدته في ذلك: إن معجزة محمد -صلى الله عليه وسلم- هي القرآن الكريم وهو الذي وقع به التحدي: أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله.

ولما طلب المشركون من الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعض الآيات الكونية تصديقًا له، نزلت آيات القرآن تحمل الرفض القاطع لإجابة طلباتهم. كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا × أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا × أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً × أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً × وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً × قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً .{سورة الإسراء: ٩٠ - ٩٥).

ويبدو لي أن مما دفع هذا الصنف إلى هذا الموقف أمرين: ١ - افتتان الناس في عصرنا بالعلوم الكونية، القائمة على ثبات الأسباب، ولزوم تأثيرها في مسبباتها، حتى ظن بعض الناس أنه لزوم عقلي لا يتخلف في حال، فالنار لا بد أن تحرق، والسكين لا بد أن تقطع، والجماد لا يمكن أن ينقلب إلى حيوان، والميت لا يمكن أن يرجع إلى الحياة... إلخ.

٢ - غلو الصنف الأول في إثبات الخوارق، بالحق والباطل، إلى حد يكاد يلغي قانون الأسباب والسنن، التي أقام الله عليها هذا العالم. وكثيرًا ما يقاوم الغلو بغلو مثله.

الصنف الثالث:

وهنا يظهر الرأي الوسط بين المبالغين في الإثبات، والمغالين في الإنكار. وهو الرأي الذي أرجحه وأتبناه.

وخلاصة هذا الرأي:

١ - أن القرآن الكريم هو الآية الكبرى، والمعجزة الأولى، لرسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي تحدى به العرب خاصة، والخلق عامة. وبه تميزت نبوة محمد على غيرها من النبوات السابقة، فالدليل على صدق نبوته هو نفس موضوع رسالته؛ وهو كتابه المعجز بهدايته وبعلومه، وبإعجازه اللفظي والمعنوي، وبإتيانه بالغيب: ماضيه وحاضره ومستقبله.

٢ - أن الله تعالى أكرم خاتم رسله بآيات كونية جمة، وخوارق حسية عديدة، ولكن لم يقصد بها التحدي، أعني إقامة الحجة بها على صدق نبوته ورسالته. بل كانت تكريمًا من الله له، أو رحمة منه تعالى به، وتأييدا له، وعناية به وبمن آمن معه في الشدائد؛ فلم تحدث هذه الخوارق استجابة لطلب الكافرين، بل رحمة وكرامة من الله لرسوله والمؤمنين، وذلك مثل "الإسراء" الذي ثبت بصريح القرآن، والمعراج الذي أشار إليه القرآن، وجاءت به الأحاديث الصحيحة، ونزول الملائكة تثبيتًا ونصرة للذين آمنوا في غزوة بدر، وإنزال الأمطار لإسقائهم فيها وتطهيرهم، وتثبيت أقدامهم، على حين لم يصب المشركين من ذلك شيء وهم بالقرب منهم. وحماية الله لرسوله وصاحبه في الغار يوم الهجرة، رغم وصول المشركين إليه، حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وغير ذلك مما هو ثابت بنص القرآن الكريم.

■ الدكتور/ يوسف القرضاوي

ومثل ذلك إشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب، وفي غزوة تبوك.

٣ - إننا لا نثبت من هذا النوع من الخوارق إلا ما نطق به القرآن، أو جاءت به السنة الصحيحة الثابتة. وما عدا ذلك مما انتفخت به بطون الكتب، فلا نقبله، ولا نعبأ به.

فمن الصحيح الثابت: أ - ما رواه جماعة من الصحابة من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه -صلى الله عليه وسلم- أول الأمر، فلما صنع له المنبر، وقام عليه للخطبة، سمع للجذع صوت كحنين الناقة إلى ولدها. فأتاه النبي -صلى الله عليه وسلم- فوضع يده عليه فسكت.

قال العلامة تاج الدين السبكي: حنين الجذع متواتر؛ لأنه ورد عن جماعة من الصحابة، إلى نحو العشرين، من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه. وكذلك قال القاضي عياض في الشفاء: إنه متواتر..ب - ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد عن جماعة من الصحابة، من إفاضة الماء بغير الطرق المعتادة، وذلك في غزواته وأسفاره -صلى الله عليه وسلم- مثل غزوة الحديبية، وغزوة تبوك وغيرهما..روى الشيخان عن أنس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدح فيه ماء، فوضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، وأطراف أصابعه، فتوضأ أصحابه به جميعًا..وروى البخاري عن البراء بن عازب أنهم كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية أربع عشرة مائة (أي ١٤٠٠)، وأنهم نزحوا بئر الحديبية فلم يتركوا فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها. قال: فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا (سقتنا وروتنا) ماشيتنا نحن وركابنا..والأحاديث في إجراء الماء له -صلى الله عليه وسلم- كثيرة مستفيضة، ومروية بأصح الطرق.. جـ - ما حفلت به كتب السنة من استجابة الله تعالى لدعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- في مواضع يصعب حصرها، مثل دعائه بإنزال المطر. ودعائه يوم بدر بالنصر، ودعائه لابن عباس بالفقه في الدين، ودعائه لأنس بكثرة الولد، وطول العمر، ودعائه على بعض من آذاه.. إلخ.

د - ما صح من الأنباء بمغيبات وقت كما أخبر بها -صلى الله عليه وسلم-، بعضها في حياته، وبعضها بعد وفاته، مثل فتح بلاد اليمن وبصرى وفارس، وقوله لعمار: "تقتلك الفئة الباغية"، وقوله عن الحسن: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين... إلخ. ومثل إخباره بفتح القسطنطينية وغيرها.

ونكتفي هنا بما اشتهر من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حين اختفى في الغار عند الهجرة من المدينة، جاءت حمامتان فباضتا على فم الغار كما أن شجرة نبتت ونمت فغطت مدخل الغار. فهذا ما لم يجئ به حديث صحيح، ولا حسن، ولا ضعيف.

أما نسج العنكبوت على الغار فقد جاءت به رواية حسنها بعض العلماء، وضعفها آخرون.

وظاهر القرآن يدل على أن الله تعالى أيد رسوله يوم الهجرة بجنود غير مرئية كما قال تعالى: (فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) والعنكبوت والحمام جنود مرئية ولا شك والنصر بجنود غير مشاهدة ولا محسة أدل على القهر الإلهي والعجز البشري. وإنما اشتهرت هذه الخوارق بين جمهور المسلمين بسبب المدائح النبوية، للمتأخرين وبخاصة مثل "البردة" للبوصيري التي يقول فيها:

ظنوا الحمام، وظنوا العنكبوت ... على خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة × من الدروع وعن عال من الأطم

فهذا هو موقفنا من الخوارق والمعجزات النبوية المنسوبة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-